الأنظمة البيانية في اللغة العربية بين التواصل والتغيير

د. رحيمة شيتر

الإشكالية :

تعد اللغة العربية أقدم اللغات الحية ولكنها تعاني من انحسار استعمالها وهجران أهلها، ولعل الإشكالات التي تروم المداخلة الإجابة عنها تتمثل في :

كيف يمكن للغة العربية أن تعود للواجهة؟

هل يمكن أن يفضي استعمال اللغة في التواصل إلى إحداث القفزة التي تروم اللغة تحقيقها؟

إذا افترضنا أن الكينونة الإنسانية كينونة لغوية،وأن اللغة مثوى الوجود ،فهل يمكن للإنسان العربي أن يعود للواجهة الإنسانية فردا فاعلا في مجتمعه وقوة فاعلة في العالم عبر اللغة؟

كيف تسهم الأنظمة البيانية في اللغة العربية في تفعيل العمل الإنساني والمضي به قدما؟

يشكل النظام الإشاري الذي اتبعه الصوفية نظاما لغويا من جهة وسلوكا أخلاقيا من جهة أخرى هل يمكن الاستفادة من تجربتهم بحثا عن روحانية اللغة،التي تجعل الكائن اللغوي الجميل ينبعث في العربي مرة أخرى، ليعود الإنسان الفاعل الخلوق باللغة؟

الكينونة اللغوية :

الإنسان كائن لغوي بامتياز فهو الوحيد الذي تعلم كيف يسمي الأشياء،وقد اقترن خلقه بتعلم البيان،"الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان "١ ،وإذا عدنا للبدايات الإنسانية الأولى كما يبينها القرآن وجدنا أن الكينونة الأولى كانت كينونة لغوية يقول الله عز وجل

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ٢

يرتبط القول بالتوجه للملائكة و يتعلق فحواه بالجعل و تنجر عن هذا القول سلسلة من الأفعال تبعا لأطراف الحلقة التخاطبية

الله ← فعل الإخبار ← إني جاعل في الأرض خليفة

الملائكة ← فعل الاستغراب ← أتجعل فيها من

آدم ← فعل إظهار علم الله عبر إعجاز الملائكة ← يا آدم أنبئهم بأسمائهم

إبليس ← فعل المروق و الكفر

إن هذا الفعل الإنساني الخارق، كان في تمهيدا للإعجاز ألخاتمي الذي تأسس على النص القرآني،هذا الافتراض لا يظهر في قصة الخلق فقط؛ إذ يتواتر ظهوره في قصص أنبياء آخرين، مما يجعلنا نفترض أن هناك سيرورة تمهيدية قوامها اللغة لإيجاد النص المعجز؛

فقصة النبي عيسى عليه السلام تتركز على إعجاز مرتبط بالكلمة فعيسى كلمة الله شهودا وإعجازا كلاميا وجودا في أشارة مريم لابنها في المهد

كما أن قصة النبي موسى عليه السلام تحوي كثيرا من الأبعاد الإشارية و المؤسسة على فاعلية اللغة في تحقيق الكينونة الإنسانية منها:

١/الاستعانة بهارون رغبة في التوصيل لفصاحة لسانه.

٢/المعجزة الموساوية التي تجلت في العصا و للعصا حضور يرتبط في كثير من جوانبه في التراث العربي بالكلام.

٣/التكليم الالهي لموسى عليه السلام.

وترتبط اللغة في القرآن الكريم بصور أخرى،فهي الوحي الذي يتضمن مفهوم الإشارة في قصتي مريم و زكريا، إذ جنحا إلى التعبير الرمزي و الذي أفضى إلى تواصل أبلغ من التواصل اللفظي،وقد كان منطلقه رمزي و منتهاه لفظي وفق مايلي:

"فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة و عشية"٣

"أشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا"٤

إذن المسيرة النبوية تشكل بناء تمهيديا للبعثة المحمدية التي حملت شعار حضارة الكلمة/النص " فالحضارة العربية الإسلامية توصف بأنها حضارة النص" بمعنى أنها حضارة إنبنت أسسها و قامت علومها و ثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه " ٥ إن النص الذي شكل أساس هذه الحضارة يختزن الكينونة الإنسانية، و عليه فالنص في الحضارة لا يشكل طارئا أو فعلا مفاجئا إذ سبقه تمهيد على المستوى الاصطفائي في سلسلة النبوات السابقة، و تمهيد على المستوى الإنساني العام ؛"فالبيئة التي وجد فيها النص أو أنزل الوحي هيء لها الأمر لتقبل هذا الفعل عبر مفهوم الاتصال الخارق"

- نزل الوحي وحدث الاتصال بين السماء و الأرض،و كان مفتتح الوحي الرباني مقترنا بالفعل "اقرأ"

إن إقرأ فعل أمر يتضمن التنبيه، عن طريق المفاجأة ؛إذ لم يكن هناك موعد مسبق عن نزول الوحي،فلا يوجد ميقات قبلي كما هو الشأن في قصة سيدنا موسى عليه السلام، كما أن القوة الإشارية للفعل لا تتوافق مع طبيعته المباشرة ؛إذ لا يوجد نص معروض للقراءة، مما يجعلنا نفترض أنها قراءة من صنف آخر غير متعارف عليها،و عليه فالنص المقروء أيضا نص مختلف تماما،أما القوة التأثيرية الناتجة عن الفعل فإنها ليست آنية و لا تتمثل في عودة الرسول (ص) إلى البيت و التدثر، و لكنها قوة تأتي نتيجتها عبر مسيرة ٢٣ سنة من الدعوة العينية الاصطفائية،ثم عبر الانفتاح المطلق الذي يتضمن النص و الفعل ففي الحديث "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله و سنتي "إن السنة هي الممارسة الفعلية للنص القرآني ففي حديث عائشة كان خلقه القرآن أو كان قرآنا يمشي "

إذن النص لم يكن مجرد قول،و لكنه كان القول المقرون بالفعل و هو ما تجسد في حياة الرسول (ص) و في الممارسات الإنسانية الإسلامية كالدخول في الإسلام الزواج،الطلاق الصلاة وهذا ما و أدركه الرعيل الأول فكانوا لا يحفظون الآية حتى يعملون بها

إن القرآن عطاء رباني يدفعنا إلى إعادة النظر في علاقة الإنسان باللغة،فقد أشار الجابري إلى أننا حرمنا من جزء غير يسير من اللغة العربية حين عمد العلماء إلى البوادي في جمع لغتهم٦،غير أننا لا نتفق معه فيما ذهب إليه،فالأمصار التي حرمت من الجمع كانت تحوي الاختراعات والمستحدثات العلمية وهي وسائل قابلة للوجود في كل زمن ،هذا من جهة ومن جهة أخرى نتصور أن قوام اللغة العربية بالقرآن وهو متناه اللفظ غير متناه المعنى،وقد ارتبطت كثير من آياته بالإشارة إلى وجوب الجمع بين عالمين هما عالم النص القرآني بما هو خطاب لغوي نزل بلسان عربي مبين،والكون وهو نظام يضمر حقائق قرآنية فقيل القرآن كتاب الله المسطور والكون كتاب الله المنظور .

إن الشيفرة القرآنية تقوم على التدبر في ملكوت الله،والجمع بين النظام اللغوي البياني والنظام الكوني الذي يشكل بيانا من صنف آخر،يتم هذا عبر ملكة العقل،

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ٧

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ[٨،

إننا أمام معطيات قوامها العقل والبيان والتدبر في خلق السماوات والأرض،ويأتي اللسان للجمع بين هذه العناصر فغايته هي تحقيق

العبودية،إذ أن مدار التدبر المرتبط بالبيان هو عبادة الله،ومدار يعقلون في قوله عز وجل،هو إقامة عبادة الله عن طريق عقل الجوارح المادية،ووضع حدود لها لئلا تطغى،كما تبين ذلك قصة يوسف عليه السلام

ومدار الأمر في اللغة العربية يقوم عل عقل اللسان وضبط حدوده من الانفلات،لذا بعد نزول القرآن قامت كثير من الدراسات حوله وحول اللسان العربي باحثة في حدوده اليومية والشرعية والفنية،فوضعت قواعد النحو،والبلاغة،وأصول الفقه وعلوم الكلام .

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن جعلها خاضعة له،وعليه نتصور أنه لا حياة لها بدونه،ولعلنا نختلف فيما ذهب إليه البعض من أن العربية هي وعاء القرآن ٩،لنقول أن القرآن هو وعاء العربية،وهو الذي يصونها مما يعتريها،إذ تغدو اللغة به عبادة ؛إننا لا نتحدث عن اللغة بوصفها وسيلة عبادة كما هو الأمر في الصلاة والدعاء والترتيل،ولكننا نتحدث عنها بوصفها ضربا من ضروب العبادة فغاية الوجود بالنسبة للمسلم هو تحقيق العبودية، ولما كانت ملكة القدرة على الكلام والقدرة على استعمال اللغة تعليما وقراءة آيتين ربانيتين،فإننا نتصور أنه يجب علينا أن نبحث كيف يمكن للعربي أن يحصل طاقة الكلام،ليس أي كلام ولكن الكلام الذي يشكل العبادة،وهو غاية ما يصبو إليه الإنسان،حينها لا يكون حد اللغة العربية أصواتا للتعبير فحد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، تعريف يصلح لكثير من اللغات لكنه يضيق باللغة العربية،إذ يهمل جانبا مهما،وهو الجانب الذي تتحقق به العبادة،وبتعبير أدق يهمل جانب الروح والفعل في اللغة،فاللغة آلة لسانية تتم بها العبادة نية في كل العبادات وأداء في بعضها،وهي محور المعاملات الإنسانية وأساسها فالدين المعاملة،ولما كنت المعاملة تقتضي تواصلا مع الآخر فإن اللغة قمينة بصيانة هذا الجانب، فحين أتعامل مع الأخر أتعامل معه لغة تضمر أخلاقا وسلوكا فقد قيل تكلم لأراك .

والمتكلم مسؤول عن كلمته إنها حبل يربطه بالله،ففي الحديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها في النار سبعين خريفاً ،وهي حبل يربطه بالآخر.

نحن أمام تجربة خاصة للإنسان تراعى فيها حدود الكلام إلى حد لا يمكن وصفه،وهي مراعاة تفتح خيارات أمام المتكلم، فمن كان قائلا فليقل خيرا أو ليصمت، خيرية الكلام شعار مفتوح في مختلف المجالات،إنها منهج اقتصادي ونفسي واجتماعي،يتيح للعربية أن تتبوأ مكانا خاصا،ولعل الأنظمة البيانية التي يشار إليها في اللغة العربية تكشف عن انفتاح اللغة واتساعها كما سنبين .

الأنظمة البيانية في اللغة العربية

يشير الجاحظ إلى خمسة أنظمة بيانية وهي :"اللفظ ثم الإشارة ثم الخط ثم العقد ثم الحال التي تسمى نصبة "١٠

النظام اللفظي :

يشكل أوسع فضاء اتصالي،ويقوم على عمليات دقيقة ومعقدة تكشف جوانب غير يسيرة من أغوار النفس البشرية،إنه نظام فارق بين لحظتي العدم والوجود،الغياب والحضور،"فالمعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم (...)مستورة خفية بعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة "١١

إن نظام التواصل اللفظي يكشف علاقة بين عالمين ؛عالم الغياب وعالم الحضور،فاللفظة التي تتكون من أصوات مسموعة أو مرئية لها معنى في الصدر يصعب القبض عليه ولكن لها تصور ذهني ينقلها من حال الغياب إلى الحضور،إنها تنوس بين العالمين،وفي هذا الفضاء يمكن للغة المنطوقة أن تحيا مرة أخرى إذ يمنحها الاستعمال حياة أخرى فينحل المنعقد ويكون المهمل مقيدا والمجهول معروفا والوحشي مألوف

النظام الإشاري :

يحتل التواصل الإشاري فضاء غير يسير من التواصلات وله وسائله الخاصة التي ترتبط بتفعيل الجسد في العملية التواصلية،"فالاشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب ..."١٢

إن النظام الإشاري يعضد اللفظ ولكنه يضيق مجال التواصل،فهو آلية "ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها عن الجليس وغير الجليس،ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى الخاص "١٣

ونتصور أن الإشارة تمهيد لأنظمة خاصة قوامها مخاطبة الروح،ففي النصوص التي يقدمها الجاحظ إيماء إلى أن التواصل الإشاري ضرب من النظام التشفيري الذي يكشف أحوال النفس الباطنة كما تبينه الأبيات التالية :

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه
وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه
وفي العين غنى للمرء أن تنطق أفواه

نظامي الخط والعقد :

إنهما نظامان منفتحان زمانيا ومكانيا وقد أقسم الله بالقلم في محكم تنزيله كما أن الكتابة مقترنة بفعل القراءة وقد جعلهما الجاحظ نظامين مرتبطين ضمنيا .

النصبة :

"وهي الحال الناطقة بغير لفظ والمشيرة بغير يد "١٤

إن هذا النظام كانت له إرهاصات في الأنظمة السابقة بدءا من النظام الإشاري الذي يعد الإشارة تعبيرا روحيا فنظامي الخط والعقد، أنظمة أشار الجاحظ إلى بيان أهميتها في الوجود الإنساني المرتبط بالعبادة ففي "عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم وفقدان جمهور المنافع واختلال كل ما يجعله الله لنا قواما ومصلحة ونظاما".١٥

إن تضافر الأنظمة البيانية في تحقيق العبودية جعل" ابن وهب في كتابه البرهان في علوم القرآن يستعيد تقسيم الجاحظ ولكن لا يأخذ به إذ البيان أربعة أوجه :فمنه بيان الأشياء بذاتها وإن لم تبن بلغاتها،وبيان الاعتقاد وبيان العبارة وبيان الكتاب "١٦

بناء على ما سبق فإن النصبة أو الإعتبار هي أرقى الأنظمة البيانية التواصلية لأنها تحقق مبدأ العبودية،إذ تقوم على الانتقال من المحسوس إلى المجرد،ومن المباشر إلى غير المباشر،هذا ما يجعل هذا النظام يجد فضاء له داخل مجال التواصل الإستعاري،الذي يتم فيه الانتقال من المشاهدة إلى الاعتبار،يقول الجرجاني حول الاستعارة "إنك لترى بها الجماد حيا ناطقا،والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جلية (...)وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل قد جسمت حتى رأتها العيون وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الصفوة "١٧،ليصل إلى أن الاستعارة لطيفة روحانية "فلا يبصرها إلا ذو الأذهان الصافية والعقول النافذة والطباع السليمة والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة وتعرف فصل الخطاب "١٨

يرتبط البيان الإستعاري بالبيان الاعتباري،ويجتمعان في كونهما آلية تسمح بالانتقال من المحسوس إلى المجرد،ومن الظاهر إلى الباطن .

ولعل أكثر النماذج كشفا للتعالق بين البيانين هي الكتابة الصوفية،وهي تجربة سلوكية،بلغت شأو في تجاوز مادية اللفظ،فقد استطاعت أن تطوع تجارب مادية لفائدة التجربة الروحية،كما هو الأمر مع المرأة والخمرة اللتين أستعيرتا للتعبير عن الذات الإلهية،ونقلها من مستوى مجرد إلى مستوى دواله محسوسة ولكن دلائله مبهمة يصعب القبض عليها.

كما استطاعت تطويع المفاهيم النحوية بوصفها قوالب تنظم التواصل الإنساني إلى التعبير عن التجربة الروحية ؛يقول القشيري "إن النحو عبارة عن القصد والناس مختلفون في المقاصد ومتفقون في المصادر والموارد فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه وواحد تقويم جنانه أكثر همه فالأول صاحب عبارة والثاني صاحب إشارة "١٩

النظام البياني عند المتصوفة

وصلنا سابقا إلى أن اللغة /اللسان والواقع /الأكوان يلتقيان في مرحلة خاصة تقوم على تجاوز المرئي للخفي "فيغدو الكون مسرحا جماليا يريد أن يصل فيه المرء إلى أسرار الرقة واللطف المودعة فيه بحيث يكون طريق التجربة الروحية طريق التحبب إلى الكون مقيما علاقة تودد وتقرب للأشياء "٢٠

وقد نظر المتصوفة إلى اللغة نظرة خاصة جعلتهم يعيدون النظر في الجانب الكلامي فقالوا "أقسام الكلام عند أهل العبارة :اسم وفعل وحرف وقال أهل الإشارة الأصول ثلاثة أقوال وهي مقدمة على العمل ثم يجب المبادرة إلى إصلاح الأعمال ثم تأتي الأحوال "٢١،إن الأقوال تفضي إلى الأفعال،وقد أفضت الكلمة إلى نشأة الإنسان كما يشير إلى ذلك ابن عربي في قوله "عن الكلام صرنا و هو قوله كن فكنا بالصمت حالة عدمية و الكلام حالة وجودية "٢٢إن الكلام هو اللحظة الفاصلة بين العدمية و الوجود في النشأة الأولى والأمر نفسه في النشأة التواصلية،و حقيقة الإنسان النطق و غاية ما يرومه الصوفي هو البحث عن حقيقة الإنسان للوصول إلى حقيقة الله،و" لما كان الناطق محتاجا إلى غيره لإجراء هذا الأمر و تحقيق غايته وجب عليه التوجه إلى سامع،و لهذا السبب حدث النظم في الكلمة فما ألفت حروفها و جمعت إلا لظهور نشأة قائمة تدل على المعنى الذي جمعت له في الإصطلاح فإذا تلفظ بها المتكلم فإن السامع يكون همه فهم المعنى الذي جاءت له فإن بذلك تقع الفائدة"٢٣.

إذن منتهى الحلقة التواصلية الصوفية هو الوصول إلى الفائدة التي تتحقق نتيجة فهم المعنى الذي يضمر نشأة ما،فالاصطلاح على الشيء بكلمة هو إحالة إلى تلك النشأة و قد كان التواصل الصوفي محكوما بقصديه خاصة،يقول الصوفي " في كل ما أورده أنني لا أقصد لفظة بعينها دون غيرها مما يدل على معناها بمعنى و لا أزيد حرفا إلا لمعنى فما في كلامي بالنظر إلى قصدي حشو و إن تخيله الناظر فالخلط عنده في قصدي لا عندي٢٤، إن وقوع الخلط في المقاصد مرده إلى تعطل الفهم نتيجة بتر الصلة بين اللفظة و مرجعها فالكلمة داخل النظام الصوفي لا تعني ما تعنيه في أصل وضعها و لما كان التواصل يقتضي فضاء أوسع من الكلمة فقد وضع مفهوم العبارة .

العبارة تعني معجميا الكلام الذي نعبر به أما صوفيا فإنها نتاج نسق خاضع لنظامين هما:

- نظام الرؤية:"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة" و لعل ضيق العبارة يدعو إلى العودة إلى النظام العدمي القبلي و هو حالة الصمت فناء في المحبوب (الله)
- نظام الإشارة:"من لم يقف عند إشارتنا لم ترشده عبارتنا" ٢٥

يتسع مفهوم الإشارة ليشمل الكون بأسره"فإن كانت البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير.

إن العبارة تختزن معجميا و صوفيا مفهوم الإشارة من خلال اجتماعها في الجذر اللغوي مع الاعتبار و هو مفهوم محوري في التجربة الصوفية، يقوم على النظر في ملكوت الله والتدبر في مخلوقاته للاعتبار الذي يعني العبور الظواهر من إلى بواطن الأمور لكشف الحقائق٢٦

مما سبق نصل إلى أن النظام الصوفي يعود إلى الارتباط بالبيان الاعتباري عند ابن وهب وبمفهوم النصبة عند الجاحظ ويلتقي مع مفهوم التعبير الاستعاري البلاغي،ليغدو الكون ضربا من الاستعارة التي يصل من خلالها الإنسان إلى إثبات استخلافه في الأرض الذي لايتحقق إلا عبر تفعيل الأنظمة البيانية وإخراجها من طور الكمون إلى طور الفعل .

الأنظمة البيانية والفعل

"يقوم التخاطب الإنساني على عمليات معقدة ويحتاج لأنظمة تواصلية مختلفة تتراوح بين الكلامي وغير الكلامي، ويزداد التعقيد حدة، إذا انتقلنا من التخاطب اليومي المباشر"٢٧ إلى التخاطب الاعتباري الذي أشرنا إليه سابقا والذي يقوم على مفهوم التجاوز،وهو مفهوم له وجوده داخل التخاطب المباشر إذا سلمنا أن المعنى المباشر أسطورة لا وجود لها، ولعل الأمر يأخذ صورة أخرى إذا نظرنا للغة التواصلية على أنها ضرب من العبادة تؤطر علاقة المتكلمين وتوجه خياراتهم فيصبح التكلم محكوما بمقاصد ومنجز لغايات قوامها الأخلاق فنحن نتعامل مع الآخر عبر لغتنا وسلوكاتنا ،وتظهر في هذا الصدد نظرية أفعال الكلام التي تقوم على اعتبار التكلم فعلا يفضي

لإنجاز ما وفق ما سنرى

نظرية أفعال الكلام:

لقد بدأت مسيرة أفعال الكلام بالثورة على مفهوم الوصف المسند في الغالب للغة، والذي أقصى الكثير من العبارات المستخدمة بحجة عدم خضوعها لمعيار الصدق والكذب،و في هذا الصدد بدأ أوستين عمله " بالكشف عن التعارض بين نوعين من المنطوقات،هي المنطوقات التقريرية الوصفية ونوع آخر يتشابه مع النوع الأول تشابها ظاهريا في البنية غير أنه لا يقوم بالوظيفة التي يقوم بها هذا النوع(...) ويسمى أوستين هذا النوع بالمنطوقات الأدائية

وإذا كانت المنطوقات الأولى تجرى عليها قوانين الصدق والكذب، من مثل قولنا الجو جميل، فإن النوع الثاني من الملفوظات لا تحكمه هذه القوانين،

إن إنتاج هذه الملفوظات "يتيح للمتكلم أو الكاتب انجاز عمل أكثر من التلفظ بقول فقط."٢٨"وهي ملفوظات إنشائية، ليست صادقة ولا كاذبة، وعوض هذا هي ناجحة أو غير ناجح٢٩.

إذن الملفوظات الإنشائية هي " تلك التي تستخدم اللغة لانجاز أفعال ما، تسمح هذه الأفعال بالسؤال والأمر والوعد والتهديد٣٠.

إذن بدأ مفهوم الفعل الكلامي بالتفريق بين الوصف والإنشاء، غير أن أوستين تخلى عن هذا التعريف تدريجيا، " وانتهى ما وصل إليه أوستين بشكل يناقض ما بدأ به فإذا كان قد بدأ بتصنيف معين للملفوظات فقد وصل إلى تعميم النظرية على جميع الملفوظات

إن هذا التعميم غير من وظيفة " الملفوظات التي لا تستخدم للتعبير عن قضايا فقط بل لانجاز أفعال"

مفهوم الفعل الكلامي:

الفعل الكلامي هو كل ملفوظ يفضي التلفظ به في شروط معينة، إلى حدث أو فعل، ينتج هذا الفعل آثارا قد تكون لغوية، وقد تكون غير لغوية، " وقد فرق أوستين بين ثلاثة أنواع أساسية يمكن من خلالها إنجاز شيء ما من خلال التلفظ.وهي على التوالي:

١- فعل القول(locutonry act)**:**

وهو عملية الإنتاج الصوتي والتركيبي والدلالي للملفوظات، فقولنا "الجو جميل" يشكل ملفوظايتشكل من أصوات تتركب هذه الأصوات بشكل يفضي لإكساب الجملة دلالة معينة.

٢- الفعل الانجازي(illocutonry act)**:**

يرى أوزولديكرو أنه " من الصعوبة إن لم نقل من المستحيل تقديم تعريف للفعل الانجازي، ومع ذلك يمكن القول إن هذا الفعل هو نتاج الفعل السابق وهو " الفعل الانجازي الحقيقي(...) وهو القيام بفعل ضمن قول شيء٣١.

٣- الفعل التأثيري (perlocutonry act)**:**

"أو الفعل بواسطة القول.إن الفعل الانجازي يحدث أثرا معينا على المخاطب، كأن يستجيب المخاطب مثلا للأمر بغلق النافذة أو فتح الباب، وهو صورة من صور تحقق الفعل الانجازي.

" ونجد في هذه النظرية أن الفعل الانجازي يتعلق بالمرسل، أما الفعل التأثيري فإنه يتعلق بالمرسل إليه، لأنه يتوجه إليه، وقد لا تكتمل دائرة التأثير فيه إلا عند حدوث رد فعل من المرسل إليه

والملاحظ على نظرية أفعال الكلام، أن الأفعال الثلاثة (القولي،الانجازي والتأثيري) وإن كانت تتضافر لتشكيل الفعل الكلامي، فإنه " يضيق أحيانا تعيين الفعل الانجازي، أو قوة الفعل الانجازي فقط"

"غير أن الفعل التأثيري، في تصورنا لا يقل أهمية عن الفعل الانجازي، فإذا كان الفعل التمريري (الانجازي) هو وحدة المعني في الاتصال و حين يقول المتكلم شيئا ما (...)يحاول توصيل ما يعنيه للسامع، فإذا أفلح سيكون قد أدى فعلا تمريريا (إنجازيا)، إننا في الواقع نسلم من جهة أخرى، بأهمية الفعل التأثيري، لأن معيار فلاح فعل المتكلم هو الأثر الذي سيظهر على السامع، إذن الفعل التأثيري هو فرصة للوقوف على سلامة وصول الرسالة أو سلامة الفعل الانجازي.

ولتوضيح هذا الطرح نأخذ هذه الجملة (الجو جميل)، والتي تحمل قوة إنجازية أمرية غير مباشرة تتحدد قيمتها في ظروف سياقية معينة فقط من خلال رصد الفعل التأثيري، الذي يتمثل في الاستجابة لما تحمله الجملة السابقة، وقد يؤدي عدم الاستجابة لهذا الأمر (أي عدم حصول الفعل التأثيري المرتجى من الانجاز) إلى التعديل في الفعل الانجازي، عن طريق زيادة بعض الوحدات اللغوية من مثل قولنا (الجو جميل، أخرجوا للعب).

إن هذه الزيادات تؤدي إلى تغيير الفعل الكلامي ككل، إذ يتغير الفعل القولي، وتتغير بموجبه قوة الفعل الانجازي.

إذن قد يؤدي الفعل التأثيري إلى تعديل في الفعل الكلامي ككل، قد تنتهي هذه التعديلات بتبديل نوع الفعل الكلامي، وتحويله من فعل كلامي مباشر إلى فعل كلامي غير مباشر أو العكس.

الفعل الكلامي المباشر (Direct speech act) :

"هو الحدث الكلامي أو الخطابي الذي يدل عليه ملفوظ معين دلالة مباشرة وحرفية ؛من مثل قولنا "أخرج"، التي تعني أمر أحدهم بمغادرة المكان، أو قولنا "كم الساعة"، التي تعني طلب الحصول على معرفة بخصوص الوقت، وعلى هذا فإن الفعل الانجازي المباشر " هو الذي يعتمد المتكلم من أجل تحقيقه والمخاطب من أجل اكتشافه والتعرف عليه على ما تحتويه البنية اللسانية الشكلية للملفوظ مباشرة ويساهم تعريف الفعل الكلامي المباشر إلى حد بعيد في تعريفنا للفعل الكلامي غير المباشر

الفعل الكلامي غير المباشر

"نصادف في الحياة كثيرا من العبارات لا يتطابق معناها الدلالي، مع المعنى الذي رغب المتكلم في التعبير عنه، من مثل قولنا "صباح الخير" في مقام معين لا يتناسب مع استخدام العبارة للتحية الصباحية، وإنما قد يفصح المقام عن استخدام هذه العبارة للسخرية والتهكم"٣٢

أو من مثل قولنا " اللهم ارزقني " إذ أن فعل الأمر هاهنا لا يرتبط بمعناه الحقيقي وإنما يخرج إلى أغراض أخرى، كالرجاء، والالتماس...إذن " نقول عن متكلم ما أنه قد حقق فعلا إنجازيا غير مباشر، عندما يحقق في الواقع فعلين لغويين إنجازيين مختلفين من خلال ملفوظ واحد كأن يقول مثلا "هل تستطيع أن تناولني الملح"، ويكون قصده ليس إلى السؤال الذي هو القوة الانجازية الحرفية المباشرة لأسلوب الاستفهام، وإنما هو الالتماس يفضي التواصل إلى انجاز أفعال كلامية مباشرة وغير مباشرة"ويقتضي التواصل وجها لوجه عدة قنوات، إذ تكمل الإشارات الملفوظ (...) وتنتج هذه الإشارات أفعالا غير لغوية تخضع لنفس المبادئ العامة للأفعال الكلامية "

إن نظرية أفعال الكلام ذات المنشأ الغربي تلتقي مع الأنظمة البيانية السابقة في مفهومي التجاوز والفعل أي؛ الانتقال من المعنى الحرفي إلى معنى مضمر ،كما أن التكلم هو ضرب من الفعل الذي يتجاوز النطق أو الإشارة لإنجاز شيء ما، يتحدد تبعا للمقاصد التي حركته،والمقامات التي أطرته .

ولعل الميزة التي تحكم النظام البياني العربي الإسلامي هي ضرورة إخضاع المقاصد وتطويعها في مختلف المقامات لتغليب الجانب الأخلاقي ليكون مهمازا محركا للفعل،"فالأخلاقيات (...)هي شاهد قرب واتصال لا شاهد بعد وانفصال،ذلك أن المعاني الأخلاقية تنزل منزلة من التفاعل أعمق من المنزلة التي ينزلها التواصل .فالمتحقق بها لا يقصد الوقوف عند حد الإخبار بالمعنى الأخلاقي لأن هذا الإخبار قد يتأدى بدون تأدب،بقدر ما يقصد أن ينسج وشائج الاتصال الفعال بينه وبين المخاطب،وأن ينشىء مزيدا من التجاوب بينهما (...)ثم إن الأخلاقيات ثمرة عمل وتجريب لا ثمرة فكر وتجريد "٣٣ وإن كنا نختلف هنا مع طه عبد الرحمن ذلك أن التجريد وفق مع طرحناه

في الأنظمة البيانية العربية وهو مرحلة من الاستغراق والتدبر في ملكوت الله لابد أن تثمر ممارسة فعلية تنتقل من طور التجريد إلى طور الفعل الذي يتجلى سلوكا "فالأخلاقيات هي دليل التوجه والتأثير (...)إذ تعمل على تبديل سلوك الغير .والمتحقق بها لا يقصد أداءها في أحسن تأليف بقدر ما يقصد إنهاض همة المخاطب إلى العمل بها. "٣٤

خلاصة القول أن الأنظمة البيانية العربية تجتمع حول استثمار مفهوم المعنى المضمر الذي يتواجد فيها بدرجات متفاوتة،وجدير بالإنسان العربي أن يسعى لإنعاش الإحساس بالوعي اللغوي لديه لتتحول اللغة إلى فعل أخلاقي،ولعلنا لا نجانب الصواب إذا جعلنا باب السؤال مشرعا متسائلين هل يمكننا أن نتحدث عن روحانية اللغة في عالم تسوده المادة،خاصة في ظل تطور آليات التواصل الجماهيري التي تسعى لهتك ستار التباعد بين الأفراد،هل يعكس التطور الحاصل حاجة الإنسان للخروج من قمقمه المادي؟وهل ستكون هذه فرصة الإنسان العربي المسلم في إعادة اللغة العربية إلى المرتبة التي تستحق؟

هل يمكن للغة العربية أن تعود للواجهة بوصفها سلوكا حضاريا قوامه مطابقة القول للفعل؟

الهوامش

١- سورة الرحمن الآيات من ١إلى ٤١

٢- سورة البقرة الآيات من ٣٠إلى٣٤ ٢

٣- سورة مريم،الآية ١١ ٣

٤- سورة مريم،الآية ٢٩٤

٥- نصر حامد أبو زيد مفهوم النص المركز الثقافي العربي /المغرب،ط٥،ص ٢٩

٦- ينظر محمد عابد الجابري التراث والحداثة،ص: ٢٢٥

٧- سورة يوسف الآية ١

٨- سورة آل عمران الآية ١٩٠

٩- شاهين عبد الصبور موقع إلكتروني

١٠الجاحظ البيان والتبيين تح عبد السلام هارون مكتبة الخانجي،القاهرة،ط٧/١٩٩٧،ج١/ ص ٧٦٠

١١- :نفسه،ص:٧٥

١٢- نفسه،ص٧٧

١٣- نفسه،ص:٨٧

١٤- نفسه،ص:٨١

١٥- نفسه،ص:٧٩

١٦- ينظر محمد عابد الجابري ،بنية العقل العربي،منشورات مركز دراسات الوحدة العربية بيروت،ط٦/٢٠٠٠،ص:٣٤١٦

١٧- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان،تحقيق محمد الاسكندراني و د م مسعود،دار الكتاب العربي ط٢/١٩٩٨،ص: ٤١

١٨- نفسه،ص:٥٧١٨

١٩- القشيري نحو القلوب الصغير،ص١٢١ ١٩

٢٠- الحوار أفقا للفكر،طه عبد الرحمن،الشبكة العربية للأبحاث،ط١/٢٠١٣،ص:٢١٢٠

٢١- القشيري نحو القلوب الصغير،ص:١٢١ ٢١

٢٢ ابن عربي: الفتوحات المكية، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦،ج٢،ص:٥٣٦.

٢٣- نفسه،ج٢،ص:٥٣٦٢٣

٢٤- ابن عربي شق الجيب بعلم الغيب ص ٣٣٩/٣٤٠٢٤

٢٥- الحلاج الأعمال الكاملة جمع قاسم محمد عباس دار رياض الريس لبنان،ط١/٢٠٠٢،ص١٩٠ ٢٥

٢٦- رحيمة شيتر، النص والفعل والتأويل،مقال مخطوط قدم في ملتقى القراءة والتأويل،جامعة خنشلة ٢٦

٢٧- رحيمة شيتر تدولية النص الشعري رسالة دكتوراه مخطوطة،ص:١٥٤٢٧

٢٨ – John lyons an introduction to linguistic semantic combridge university press، 2nd published ١٩٩٦.p:٢٣٨s

٢٩ - Geoffrey leech، principales of pragmatics، ١٩٩٦ p :١٧٩

٣٠ - John lyons، p:٢٤٢

٣١ - Oswald Ducrot ، dire et ne pas dire ، principes de sémentique linguistique ، imprission ، parneond ، Paris/France،٢٠٠٣، P :٢٨٠٣١

٣٢- رحيمة شيتر تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجا،رسالة دكتوراه مخطوطة،ص:١٥٦ ٣٢

٣٣- طه عبد الرحمن تجديد المنهج في تقويم التراث،المركز الثقافي العربي،ط٣/دت،ص:٤٠٠٣٣

٣٤- نفسه،ص:٤٠٠٣٤